تعليم التفكير لأبنائنا.. كيف؟

لاشك أننا نعيش اليوم عصر العولمة والمعلومات الذى يتميز بالسرعة فى إيقاعه ونمط حياته إلى درجة أن الأفراد فيه أصبحوا بحاجة إلى اتخاذ قرارات حاسمة فى حياتهم وفى مواجهة بعض المواقف الصعبة والمشكلات التى تعترضهم بل اتسم هذا العصر بالذكاء البشرى الحاد الذى تجلى فى انجازات هائلة فى العلم والتقنية، كما وكيفا والتى فاقت ما سبق أن أنجزته البشرية فى كل ما مضى من قرون.

لذا جاءت قضية الجودة والاعتماد فى العملية التعليمية سواء فى التعليم الجامعى أو ما قبل الجامعى فى معظم مجتمعات العالم لكى تسهم فى حل الكثير من المشكلات وخاصة بعد أن ثبت أن نظم التعليم فى هذه البلدان لم تعد صالحة لهذا العصر، وأن مشكلات التعليم فيها يجب أن توضع فى أولوية المشكلات التى يجب أن تدرس ويبحث لها عن حلول جذرية لأنه إذا لم تحل هذه المشكلات الخاصة بالتعليم فسوف يكون التعليم سببا فى أسباب تخلفها ويصبح معظم أفرادها جاهلين وعالة عليهم ومتحجرين عقليا يتميزون بالجمود الفكرى، لهذا أصبحت قضية الجودة فى العملية التعليمية أمرا ضروريا ومهما لكى تتطور هذه المجتمعات وينتقل معظم أفرادها من حالة التخلف إلى حالة التقدم والتطور والتطلع إلى مستقبل أفضل، لذا يجب نشر ثقافة الجودة وتعليم الأفراد طريقة التفكير الجيد حتى يصبحوا أكثر استعدادا للتكيف مع ظروف الحياة المعاصرة فى هذا القرن الحادى والعشرين ولكى يتعاملوا بفكر متقدم وقوى ومتميز مع الآخر فيقودوا ولا ينقادوا ولا يصبحوا تابعين مستهلكين للعلم والمعرفة والجوانب المادية بل يكونوا منتجين ومصدرين للعلم والمعرفة والنواحى المادية المختلفة. ويعتبر تعليم التفكير كما تشير الأطر النظرية والأدبيات النفسية أحد المكونات الأساسية فى تشكيل الشخصية المعاصرة ومطلبا أساسيا من مطالب التكيف والمعيشة الكريمة لأن التفكير يعتبر من أبرز السمات النفسية والعقلية التى تسمو بالإنسان عن كل السلوكيات السيئة والتصرفات المسيئة. وتعليم التفكير من الحاجات الأساسية والمهمة التى لا تستقيم الحياة بدونها، فالإنسان المعاصر يحتاج إلى تعليم التفكير من خلال مراحل نموه الإنسانى حتى يستطيع أن يدير شئون حياته، ولبناء جيل بارع فكريا، ومجتمع يتصف بالتماسك الاجتماعى والوجدانى والوعى العلمى لا مجتمع تنتشر فيه الجريمة بأنواعها والعنف وتنخفض فيه المبادىء والقيم وتتلاشى وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ سورة الأنبياء «٧٩».

التعليم من أجل التفكير وتعلم مهاراته شعار جميل لأن التفكير قوة متجددة لبقاء أى مجتمع فى هذا القرن الواحد والعشرين، بل إن التفكير يزود الأفراد فى هذا القرن الواحد والعشرين بالأدوات التى تساعدهم على التكيف فيه ويرفع من درجة الإثارة والجذب للخبرات التربوية وتنمية المواهب المختلفة لديهم وإكسابهم مهارات عقلية وذهنية تساعدهم فى إدارة شئون حياتهم بطريقة فعالة وإن إهمال تعليم التفكير ومهاراته قد يثبت افتراضين غير صحيحين هما:

٢ - أن مهارات التفكير لا يمكن تعلمها

٢ - عدم الحاجة لتعليم مهارات التفكير

لهذا يجب أن يكون تعليم التفكير هدفا تربويا وأسريا لإعداد المواطن الصالح والقوى فى هذا العصر حتى يستطيع أن يقود ولا ينقاد. فمهارات التفكير العليا يمكن أن تتحسن بالتدريب والتعليم ولا يمكن تنميتها بالنضج والتطور الطبيعى لعملية النمو الإنسانى وأن المعرفة والمعلومات يمثلان القاعدة الأساسية فى طريقة تعليم التفكير.

ويعتمد التفكير على ثلاثة أنماط أساسية هى:

١. تفكير معرفى يستدل عليه فى السلوك لأنه يحدث داخليا

فى العقل والنسق العقلى

٢ ـ تفكير موجه ينتج عنه سلوك موجه لحل أى مشكلة

٣ ـ تفكير عقلى يتضمن بعض العمليات العقلية فى النسق المعرفى.

التفكير متصل نفسى يبدأ بنشاط ذهنى عندما يواجه الفرد مشكلة معينة وينتهى باتخاذ قرار لحل هذه المشكلة كما أنه مرتبط بتركيب الدماغ البشرى والبنية العقلية وتعقد الجهاز العصبى وزيادة أو انخفاض الوصلات العصبية فكلما زاد تعقيد هذا الجهاز زادت الوصلات العصبية وزاد التفكير.

فالدفاع البشرى أداة العقل للتفكير ومعرفتنا به تساعدنا فى معرفة طبيعة التفكير فهو آلية العقل البشرى وأنه يتألف من تريليون «ألف مليار خلية عصبية» يتصل بها ١٠٠ بليون عصب فى شبكات عصبية تبعث الذكاء والذاكرة التى تحتوى على الذكاء السائل والاستعدادات الفطرية والذكاء المتبلور والتحصيل الدراسى للمعلومات، وأن المعرفة غذاء العقل وأن الذاكرة مركز العمليات المعرفية لعمليات التفكير وأن الفهم كجانب للتفكير ومظهر له وكعملية معرفية يتأثر بالذاكرة طويلة المدى فالذاكرة تمثل ذات الإنسان وماضيه وحاضره ومستقبله.

كما أن للتفكير مستويات حيث تبدأ هذه المستويات من المستوى الأدنى وهو المستوى الأساسى ويتطلب مهارات متنوعة منها المعرفة وما وراءها لحل مشكلات ضعيفة البناء كنوع من الذكاء الافتراقى والمستوى الأعلى الخاص بحل مشكلات محكمة البناء كنوع من الذكاء الاقترابى وأن هذا التفكير صنف فى أنماط إما حسب الخصائص النفسية الفارقة مثل «التفكير المرن ـ الجامد ـ الاندفاعى ـ التعبيرى ـ العاطفى الوجدانى ـ المتروى ـ القديم ـ الجديد» أو حسب الظواهر المميزة لموضوع التفكير «مثل تفكير فنى ، اقتصادى ، سياسى ، علمى، موسيقى، دينى ، حياتى أسرى ، خرافى ، منطقى علمى» أو حسب الايجابية والفاعلية «ايجابى فعال أو سلبى غير فعال»وأخيرا حسب طبيعة التفكير «مثل تفكير ابتكارى يأتى بالجديد والحل الابداعى للمشكلات وما وراء المعرفة والابداع وفوق المعرفى وتفكير تقليدى قديم أو تفكير ترابطى وتجريدى أو ناقد».

إذن كيف نعلم التفكير لأبنائنا؟

يشير كوتون ١٩٩١ إلى أن تعليم التفكير لأبنائنا يجب أن يكون هدفا أسمى للتعليم فى أى مجتمع لأنهم بهذا يكسبون علما مدى الحياة، وأن تنمية التفكير ضرورة لاكتساب العلم وتعلمه، إذا أردنا أن نبنى جيلا مفكرا ومجتمعا متماسكا ومبدعا وأن تعليمه يجب أن يدرج كمادة دراسية تدرس وتعلم لأبنائه. ويتم تعليم التفكير كمهارة لأن مهارات التفكير أصبحت مهارات حياتية يومية ويجب التدريب على تنميتها من خلال مواقف تربوية طبيعية يمكن التخطيط لها من جانب الأسرة ثم المدرسة من أجل تكوين الخريطة المعرفية للعقل البشرى أو تعليم التفكير عن طريق رسم الذات المثالية «مستوى طموح الأبناء» وتوفير الأدوات الخاصة بمهنة المستقبل لهم حتى يتعايش والشخصية المميزة لهم منذ الصغر والتى يتمنون أن يكونوا عليها فى المستقبل فالناس أصناف صنف حكم العقل على العاطفة فكان مثل الملائكة وصنف حكم العاطفة على العقل فكان مثل الدواب وصنف متزن هادئ معتدل حكم العقل مع العاطفة وهذا هو المطلوب لهذا القرن الـ٢١ لأنه لا يحتاج لملائكة ولا لدواب بل بشر يفهم كيف يفكر ويتعامل مع الآخر بفكر متقدم عن طريق تعليم التفكير منذ الطفولة. كذلك يمكن تعليم التفكير عن طريق تطور شجرة الفكرة واستخدام أسخف الأفكار ولعب الدور واستخدام أسئلة ابداعية مثل: ماذا يحدث لو.. أو تخيل نفسك مكان ، الألغاز أو الأزمات فى القصص والحكايات أو أن يطلب من الطفل أن يعطى «عناوين لها أو نهايات لها غير العناوين أو النهايات الأصلية وجعل المألوف غريبا والغريب مألوفا فى القصص والحكايات أو تدريس المقرر أو عن طريق التنظيم الذاتى للتعلم والتعلم الذاتى والتسميع والترديد والتنظيم الذاتى مكون من ثلاثة عناصر هى ملاحظة الأداء والعمليات التقويمية استجابة رد الفعل وهذا كله مرتكز على فعالية الذات ومراقبتها.

كما أن هناك برامج لتعليم التفكير مثل برنامج باير الذى يركز على دمج مهارات التفكير المختلفة وتعلمها كأحد موضوعات المقرر الدراسى.

وبرنامج الكون الذى يعتمد على المواقف المجسمة والحية من خلال الأنشطة العلمية المرتبطة بالبيئة لاكتشاف أشياء جديدة فى الكون وتنمية التفكير العلمى وبرنامج نجاح الذى يعتمد على القدرات الخاصة للأفراد وتنميتها.

برنامج دى بونو الذى يعتمد فى تعليم التفكير على مهارة التفكير أى الأداء العملى للوصول إلى ما هو ابداعى وجديد.

برنامج إبراهيم محمد المغازى لتنمية وتعليم التفكير الابتكارى لأطفال المرحلة الابتدائية كما أكدت الدراسات النفسية على أهمية الإسراع والإثراء التعليمى فى تعليم وتنمية التفكير.

وصدق الله تعالى إذ يقول

﴿ وَيَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾

سورة العنكبوت «٤٣».

بقلم:

د. إبراهيم محمد المغازى

قسم علم النفس جامعة قناة السويس